الغطاس

قصة للكاتبة الدنمركية كيفن بليكش

نقلها الى العربية حسن بكر

حدث ميرا جاما قائلا :

عاش في شيراز طالب دين شاب ، وكان رفيع الموهبة ، نقـي السريرة ، واسمه صوفي . ومذ قرأ القرآن ، المرة تلو المرة ، فقـد استوعب الفكر الملائكي ، حتى لقد عايشت روحه الملائكة ، اكثر ممـا عايشت امه ، او اخوته او اساتذته ، او زملاءه من الطلبـة ، او أي اناس آخرين في شيراز .

كان يستعيد من الكتاب المقدس ، الآيات التي تخص الملائكة .. اولئك الذين يستلون ارواح الرجال بقسوة ، والذين يقودون ارواح الاخرين باناة ودعة .. والذين يسبحون في الفضاء حاملين اوامـر الله .. والذين يقودون خطى الفضلاء ، ويتقدمونهم الى الفردوس .. والذين يحكمون هذا الكون بشكل ثانوي ...

وحدث نفسه :

ـ ان عرش الله لا بد ان يكون سامقا في السماء ، حتى لتعجز العين عن ان تطاله ، وحتى ليتعثر من دونه الفكر البشري . سوى ان الملائكة الاطهار يطوفون ما بين الابهاء الالهية الارجوانية ، وبين منازلنا ، وقاعات درسنا المظلمة .. ولا بد ان تتاح لنا رؤيتهم ، وان نتصل بهم ..

وتداعى اليه

ـ ان الطيور ، من بين جميع المخلوقات ، لا بد ان تكون عـلى هيئة الملائكة .. أولم يقل الكتاب المقدس : « ان الله يسبح له ما في السموات والارض ، والطير صافات » .. ثم لا ريب في ان الطيـور تتنقل في كل من الارض والسماء ، تماما كما تفعل الملائكة . ونحـن اذا ما حاولنا ان نقلد الطير في كل هذا ، فسنصبح اقرب ما نكـون الى الملائكة ، مما نحن الان عليه .

ـ ولكن ، بالاضافة الى كل هذه الاشياء ، فان للطير اجنحـة ، كما للملائكة .. ولو ان الرجال استطاعوا ان يركبوا لانفسهم اجنحـة ترفعهم الى آفاق سامقة ، حيث يستوطن النور النقي ، الخالد ، لكان ذلك حسنا . اذا ما استنزف الطائر قدرة جناحيه ، حتى الرمـق الاخير ، فلربما يصادف او يمر بملاك ، خلال معابر الاثير الموحشة .. ولربما احتك جناح العصفور بقدم ملاك ، او التقت نظرة نسر ، فـي اللحظة التي اوشكت قوته فيها ان تخور ، بعيني احـد رسل الله الهادئتيـن .

وقرر :

ـ يجب ان اوظف وقتي وعلمي في مهمة تركيب هذه الاجنحـة لزملائي من الرجال .

وهكذا أزمع على ان يترك شيراز ، ليدرس اساليب المخلوقـات المجنحـة .

كان صوفي ـ حتى الان ـ يعيل امه ، واخوته القاصريـن ، بتعليم ابناء الموسرين ، وبنسخ المخطوطات القديمة . وتظلموا بأنهـم سيصبحون فقراء بدونه .. الا انه كان يجادلهم بأن انجازاته ستعوضهم ـ يوما ما ـ عن حرمان الحاضر . اما اساتذته ، الذين كانوا يتنبأون له بحرفة ممتازة ، فقد جاءوا لرؤيته ، وحاجوه :

ـ ما دام العالم قد استمر كل هذا الوقت ، دون ان يتصـل الرجال بالملائكة ، فلا بد ان ذلك كان قدرا على العالم .. ويجوز ان يبقى كذلك في المستقبل .

قال صوفي بأدب جم :

ـ حتى هذا اليوم ، لم ير احد الطيور المهاجرة ، تشق طريقهـا باتجاه اجواز فضاء اكثر دفئا ، لا وجود لها .. او الانهار تشق مجراها بين الصخور والسهول ، لتصب في محيط لا يمكـن العثور عليه .. ذلك ان الله لم يخلق حنيننا او املا ، دون ان يهيىء له حقيقة وافية .. سـوى ان حنيننا هو دعوانا .. وبورك الذين يحنون الى اوطانهـم ، لانهم سيعودون اليها .

وصاح مدفوعا بتسلسل افكاره :

ـ وايضا ، أفلا يصبح عـالم الانسان افضل ، اذا استطاع ان يتبادل المشورة مع الملائكة ، وان يتعلم منهم نواميس الكون التي يقرأونها بسهولة ، لانهم يرونها من عل .

كم كان ايمانه بما أخـذ على عاتقه قويا ، حتى ان اساتـذته ـ في النهاية ـ كفوا عن معـارضته ، قائلين لانفسهم ، ان شهـرة تلميذهم قد تكسبهم ـ في مستقبل الايام ـ الشهرة معه .

مكث الصوفي الشاب عاما كاملا بين الطيور .. أقام سريـره في اعشاب السهـل الطويلة ، حيث ترامت اليه زقزقة الطيـور الواهنة .. وتسلق الاشجار الهرمة ، حيث تبني اليمامة والعصفـور عشيهما ، ووجد لنفسه مقعدا بين الاغصان ، فجلس هنالك بهـدوء ، حتى انه لم يزعجهما قط .. وتجول في شعاب الجبال الشاهقات ، تحت ضفاف الشاطىء الثلجي تماما ، يجاوره زوج من النسـور ، فيرقبهما في غدوهما ورواحهما .

عاد الى شيراز بحصيلته من المعلومات ، والادراك ، وانعكف على صنع اجنحته .

وقرأ في القرآن :

ـ « الحمد لله فاطر السموات والارض ، جاعل الملائكة رسلا اولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع .. » ، وقرر ان يصنع لنفسـه ثلاثة ازواج من الاجنحة : زوجا لكتفيه ، وزوجا لخاصرتيه ، وآخـر لقدميـه . لقد جمع في تجواله ، العديد من مئات الارياش المتطايرة من اجنحة النسور ، والاوز ، والعقبان .. واعتكف وهذه معـه .. وعمل بحماس زائد ، حتى انه لم ير او يكلم احدا ، لمدة طويـلة .. ولكنه رتل القرآن اثناء عمله ، فوقف المارة ، وانصتوا ، ثم قالوا :

ـ ان هذا الصوفي الشاب يسبح لله ، ويؤدي ما أمر به .

ولكن ، بعد ان أنجز اول زوج من الاجنحة ، وجربهما ، وشعـر بقوتهما الرافعة ، لم يستطع ان يحتفظ بانتصاره لنفسه ، بـل حدث به اصدقاءه .

ابتسم عظام الناس في شيراز ، من النبلاء وكبار الموظفيـن ، بسخرية ـ باديء ذي بدء ـ للشائعات عن عمله الباهر . ولكن ما ان انتشرت الشائعات ، وأكدها نفر كبير من الشبان ، حتى ازدادوا فزعا .

قال احدهم للاخر :

ـ اذا اتصل هذا الولد الطائر بالملائكة حقا ، فان اهالي شيراز

ـ كعادتهم عندما يحدث اي شيء غير طبيعي ـ سيجنون تعجبا وسرورا .. ومن يدري اية اشياء جديدة ، او ثورية ، ستنبؤه الملائكة بها ؟..

وعلقوا على ذلك قائلين :

ـ فان من الجائز ان توجد ملائكة في السماء .

وقلبوا الامر على وجوهه .. فقال كبيرهم ، وكان وزيرا للملك ، واسمه ميرزا اغا :

ـ ان هذا الفتى خطر ما بقيت له احلام عراض .. ولكنه غير مؤذ .. وسيكون ميسور التدبير ، ما دام قد اهمل دراسة عالمنا الحقيقي ، الذي تحك فيه الاحلام . وسوف نثبت له ، وننفي ـ بدرس واحد ـ وجود الملائكة .. ام ترى ان شيراز خلت من الفتيات الشابات ؟

استدعى ـ في اليوم التالي ـ احدى راقصات الملك ، واسمها ثوسمو .. وشرح لها من الامر القدر الذي حسب انه من الخير لها ان تعرفه .. ووعد بأن ينعم عليها ، اذا اطاعته ، والا فان صديقتها ، الراقصة الشابة ، سترقى لتحل محلها ، في فرقة الرقص الملكية ، في احتفالات فطف الورد ، لتقطير العطور .

وهكذا حدث ذات ليلة ، عندما صعد الصوفي الى سطح منزله ، لكي ينظر الى النجوم ، ويحسب مدى السرعة التي يمكن ان يسافر بها من نجم الى اخر ، ان سمع اسمه ينادى بصوت منخفض ، من خلفه . فلما التفت ، لمح طيفا جميلا ، أهيف ، في رداء من الذهب والفضة ، منتصبا ـ وقد جمعت قدميها ـ بالقرب من حافةالسطح .

لقد ملأ الشاب عقله بالفكرة الملائكية .. فلم يساوره الشك في هوية زائرته ، بل انه لم يفاجأ كثيرا ، وانما غمره السرور .. وارسل نظرة الى السماء ، ليرى ما اذا كان طيران الملاك قد خلف هنالك قبسا من نور . وفي هذه الآونة ، سحب القوم من دونه السلم الذي تسلقت الراقصة سطحه بواسطته .. ثم خر امامها على ركبتيه .

أحنت رأسها اليه برقة ، ونظرت اليه بعينين سوداوين ، كثيفتي الاهداب ، وهمست :

ـ لقد حملتني في قلبك دهرا طويلا ، يا خادمي صوفي .. وها أنذا قد جئت الان ، لافتش نزلي الصغير ذاك . أما كم سأبقى معك ، في بيتك ، فرهن بخضوعك لي ، واستعدادك لتنفيذ مشيئتي.

ثم جلست على السطح ، وقد وضعت ساقا على ساق ، بينما كان ما يزال هو راكعا على ركبتيه .. واخذا يتجاذبان اطراف الحديث.

قالت :

ـ نحن الملائكة ، لا نحتاج حقا الى اجنحة ، لننتقل بين السماء والارض ، فان اطرافنا تكفي .. فاذا ما اصبحنا صديقين حميمين ، فسوف يصبح الامر كذلك ، بالنسبة لك .. وبوسعك عندئذ ان تحطم الاجنحة التي تصنعها .

وسألها ، وهو يهتز نشوة ، كيف يمكن ان يتم طيران كهذا ، وهو مخالف لكل قوانين العلوم .. ففحكت عليه ضحكة كأنها جرس صغير ، واضح .. قالت :

ـ انتم الرجال مولعون بالقوانين ، والجدل .. وان لديكم ايمانا كبيرا بالكلمات ، التي تخرج من خلال لحاكم .. ولكنني سأقنعك بأن لنا فما لنقاش اكثر عذوبة ، وفما اكثر عذوبة للنقاش .. انني سأعلمك كيف يتوصل الملائكة والرجال ، بطريقة سماوية ، الى تفاهم مطلق ، دونما جدل . واما هذا ، فقد فعلته .

وأما هذا ، فقد فعلته .

كانت سعادة الصوفي ـ طيلة شهر ـ مفرطة ، حتى ان قلبه استسلم لها .. ونسي كل ما يتعلق بعمله ، اذ كان يسلم نفسه ، المرة تلو المرة ، للتفاهم السماوي .

قال لثوسمو :

ـ انني ادرك ـ الان ـ مدى أحقية ابليس ، الذي قال لله : « انا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين » .

وتنهد ، اذ اقتبس لها من الكتاب مرة اخرى :

ـ « قل من كان عدوا لله وملائكته ... فان الله عدو للكافرين » .

واحتفظ بالملاك في بيته ، لانها قالت له ان رؤية روائها ستعمي اهالي شيراز ، الذين لم يعهدوه .. فكانت لا تخرج معه الى سطح المنزل الا ليلا ، ليتأملا معا الهلال الجديد .

وحدث الان ، ان شغف الصوفي الراقصة حبا .. فقد كان حسن الوجه ، كما جعلت حيويته التي لا تنضب ، منه عاشقا كبيرا .. فبدأت تؤمن انه قادر على اي شيء . وكانت ايضا ، قد فهمت من حديثها مع الوزير العجوز ، انه ينظر بهلع الى الفتى واجنحته ، كشخص خطر عليه ، وعلى زملائه ، وعلى الدولة .. وقالت فينفسها، انها تود ان ترى الوزير العجوز ، وزملاءه ، والدولة ، وقد امحوا من وجه الارض .. فان حنانها لصديقها الشاب ، قد جعل قلبها في رقة قلبه تقريبا .

وعندما اكتمل البدر ، واستلقت المدينة كلها سابحة في ضوئه ، جلس الاثنان ملتصقين على السطح ، وقد امتدت يده تداعب يديها..

قال :

ـ لقد اكتسبت يداي ، مذ عرفتك ، حياة خاصة بهما .. انني موقن ان الله ، حين وهب الرجال الايدي ، قد اعرب لهم عن عطف ، ومحبة ، فكأنه قد وهبهم أجنحة .

ورفع يديه ، وأخذ يتأملهما .

وتنهدت قليلا ، قائلة :

ـ لا تحنق .. لست انا الملاك ، بل انت .. حقا ، ان لفي يديك قوة ، وحياة .. دعني اشعر بذلك مرة اخرى .. وثم أرني غدا الاشياء العظيمة ، التي صنعتها بهما .

ولكي يدخل عليها السرور ، اخذها ، في اليوم التالي ـ وهي غارقة في الحجاب ـ الى مصنعه .. وعندئذ ، رأى ان الفئران قد

في المكتبات

مع الإمام علي

من خلال «نهج البلاغة»

دراسة مستفيضة عن عبقرية الامام علي كسياسي وحكيم من خلال خطبه ورسائله التي يتضمنها كتابه الخالد « نهج البلاغة »

تأليف

خليل الهنداوي

منشورات

الثمن ٢٥٠ ق.ل

دار الاداب

أكلت ارياش النسور المتطايرة ، وان اطار الجناحين قد حطم ، ونشر الحطام هنا وهناك .. ونظر اليه ، وطفق يتذكر الايام التي انكب فيها على صنعهما .. سوى ان الراقصة بكت :

ـ لم أكن اعلم ان هذا ما اراد .. أوليس ميرزا أغا رجلا لئيما ! وسألها مذهولا عما تعنيه ، فأخبرته بكل شيء ، بأسى وسخط.. قالت :

ـ اواه يا حبيبي .. انني لا استطيع الطيران ، رغم انهم يقولون لي انني ذات خفة غريبة ، حينما ارقص .. لا تغضب علي .. بل تذكر ان ميرزا اغا واصدقاءه قوم عظام ، لا تستطيع فتاة فقيرة مثلي ان تنالهم بسوء .. وانهم اغنياء ، ويملكون اشياء جميلة .. وانك لا يمكن ان تتوقع من راقصة ان تكون ملاكا .

واذ سمع ذلك ، خر على وجهه ، لا ينبس ببنت شفة .. وجلست ثوسمو بجانبه .. وتساقطت دموعها على خصلات شعره ، التي لفتها حول انامله .. وقالت :

ـ انت فتى رائع .. ان كل شيء معك عظيم ، وعذب ، وسماوي بحق .. وانني لاحبك .. فلا تأس يا عزيزي .

ورفع رأسه .. ونظر اليها ، ثم قال :

ـ « وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة ... » .

قالت :

ـ لا يوجد من يرتل القرآن بعذوبة ، كما ترتله .

عاد ينظر اليها من جديد قائلا :

ـ « فكيف اذا توفتهم الملائكة ، يضربون وجوههم وأدبارهم .. ذوقوا عذاب النار بما كنتم تفعلون .. » .

وبعد برهة قالت :

ـ لعله ما يزال بوسعك ان تصلح الجناحين ، ولربما اصبحا كأنهما جديدان .

قال :

ـ انني لا استطيع ان اصلحهما .. والان ، وقد نفذت مهمتك ، فيجب ان تذهبي ، اذ انه سيكون خطرا عليك ان تبقي معي ، لان ميرزا اغا واصدقاءه قوم عظام .. وان عليك ان ترقصي في مهرجان قطف الورد ، لتقطير العطور .

قالت :

ـ وهل تنسى ثوسمو ؟

قال :

ـ لا .

ـ هل ستحضر لتشاهدني ، وانا ارقص ؟

اجاب :

ـ نعم ، ان استطعت .

قالت بأسى ، وقد انتصبت واقفة :

ـ سوف آمل دائما ، بأنك ستحضر .. ذلك ان المرء لا يستطيع ان يرقص بلا امل .

وبذلك ، انصرفت حزينة .

ضاق الصوفي ، الان ، ذرعا ببيته .. فترك باب مصنعه مفتوحا، واخذ يتجول في المدينة .. ولكنه لم يستطع البقاء في المدينة ، فاتجه صوب الغابات والسهول .. غير انه لم يحتمل رؤية الطيور ، او سماع اغاريدها .. فما لبث ان عاد الى الشوارع .. وهنا ، كان يتوقف احياناامام حوانيت بائعي العصافير، ويتأملها في اقفاصها ، لفترة طويلة .

وعندما تحدث اليه اصدقاؤه ، لم يتعرف عليهم .. سوى انه كان ، اذا ضحك الصبية عليه ، في الشوارع ، وتصايحوا : « انظروا الصوفي الذي آمن بان ثوسمو ملاك » ، يقف جامدا ، ينظر اليهم ، ثم يقول :

ـ انني ما ازال اعتقد ذلك .. فانا لم افقد ايماني بالراقصة ، وانما بالملائكة .. اليوم لم اعد اذكر كيف تصورت منظر الملائكة ، عندما كنت صغيرا .. انني اشعر ان منظرهم مخيف .. قل من كان عدوا للملائكة ، فانه عدوالله ، ومن كان عدوا لله ، لم يبق له امل .. وانا لا امل لي .. وانك لن تستطيع ان تطير بلا امل .. وهذا ما يقض مضجعي .

على هذا المنوال ، هام الصوفي التعيس على وجهه ، طيلة عام .. ولقد قابلته في الشوارع بنفسي ، عندما كنت صبيا صغيرا ، ملتفا بعباءة سوداء رثة ، وبعباءة من الوحدة الابدية ، الاكثر سوادا . وفي نهاية العام ، ذهب ، ولم يعد يرى في شيراز .

قال ميرا جاما :

ـ هذا هو الفصل الاول من القصة .

***

سوى انه حدث ـ بعد سنوات عديدة ، عندما شببت عن الطوق ، وطفقت ، اول الامر ، احكي الحكايات ، لاسعد بها العالم ، ولاعلمه الحكمة ـ ان سافرت الى شواطىء البحر الرملية ، الى قرى صيادي اللؤلؤ ، لكي اسمع مغامرات هؤلاء الرجال ، وادعيها لنفسي.

ذلك ان اشياء كثيرة تقع للذين يغطسون في اعماق البحر .. ان اللاليء في حد ذاتها ، اشياء تتصف بالغموض ، والمغامرة .. انك اذا تابعت تطور لؤلؤة واحدة ، فسوف يعطيك مادة لمائة حكاية .. وان اللاليء مثل حكايات الشعراء : المرض وقد انقلب الى عذوبة .. انها اسرار الاعماق ـ وهي شفافة ، وغامضة في آن معا ـ أخرجت للنور لتسعد بها النساء الشابات ، اللائي سيتعرفن فيها الى أسرار صدورهن الاعمق غورا .

وبعد حقبة من الزمن ، سردت على الملوك ، بنجاح عظيم ، القصص التي قصها علي ـ من قبل ـ الصيادون البسطاء ، الوادعون.

كثيرا ما تردد اسم في حكاياتهم ، مما اثار فضولي .. فرجوتهم ان يخبروني باسهاب ، عمن كتبها .. عندئذ ، أفادوني بأن الرجل غدا مشهورا بينهم ، نظرا لجرأته ، وحظه العجيب ، غير المعهود . وفي الحقيقة ، فان اسم « النازرد » الذي اطلقوه عليه ، يعني بلهجتهم الشخص « الناجح » او « السعيد والقانع » .. لقد كان يغطس الى اعمق الاعماق ، ويمكث في القعر اكثر من اي صياد آخر .. وانه ما خاب قط في ان يجلب الى السطح ذلك المحار المحتوى على انفس اللاليء . لقد ساد الاعتقاد ، في قرية صيادي اللؤلؤ ، ان له في المياه العميقة صديقا ـ ربما كان حورية شقراء ، او ربما كان ايضا ماردا بحريا ـ ليرشده . واذ كان باقي الصيادين عرضة لاستغلال شركاتهم التجارية ، فعاشوا فقراء طيلة حياتهم ، فان الشخص السعيد قد تمكن من ان يجمع لنفسه ثروة طائلة .. فاشترى منزلا وحديقة بداخل البلاد ، واحضر امه لتقيم فيه .. وزوج اخوته .. غير انه بقي محتفظا لنفسه بكوخ صغير على الشاطىء . وعلى الرغم من شهرته الجنية ، فقد كان ـ كما يبدو ـ على اليابسة ، وفي حياته اليومية ، رجلا مسالما .

انا شاعر .. وقد اعاد الي شيء ما في هذه الروايات ، حكايات الماضي السحيق .. فقررت ان ابحث عن هذا الشخص الناجح ، واشجعه على ان يحدثني عن نفسه . وعبثا بحثت عنه ـ بادىءالامر ـ في منزله الانيق ، والحديقة الغناء . وذات ليلة ، مشيت بمحاذاة الشاطىء ، الى كوخه .

كان القمر بدرا في السماء ، والامواج الرمادية الطويلة تتوافد الى الشاطىء تباعا .. وكل شيء من حولي ، يبدو متفقا على كتم السر .. دققت النظر في كل ذلك ، وأحسست انني سأسمع شيئا ما ، وسأؤلف قصة رائعة .

لم يكن الرجل الذي سعيت اليه ، في كوخه .. بل كان جالسا على الرمل ، محملقا في البحر .. وكان بين الفينة والفينة ، يرميه بحصاة . وفي ضوء القمر ، رأيت رجلا بدينا ، جميلا ، تعبر قسماته الوادعة بحق ، عن السعادةوالوئام .

حييته باحترام ، وذكرت له اسمي ، واوضحت انني خرجت

لأتمشى في الليـــل الدافيء ، الصافي .. فرد التحيـــة بلطف ، ووقار .. وأخبرني بمعرفته بي من قبل ، عن طريق شهرتي كشـــاب يحاول التمكن من فن سرد القصة . ثم دعاني للجلوس بجانبه ، عـلى الرمل . تحدث لبرهة ، عن القمر ، والبحر .. ثم قال ، بعد فتـــرة من الصمت ، انه لم يسمع حكاية تحكى ، منذ زمن بعيد .. فهـــل يمكن ان اقص عليه قصة ، فيما كنا جالسين معا بسرور ، في الليـل الدافيء ، الصافي ؟

كنت توافا لاثبت مهارتي .. وأملت ايضا ان يخدم ذلك غايتـي معه . وهكذا ، فتشت ذاكرتـــي عن حكاية حسنة . وبطريقة مـــا ـ ولست أدري لم ـ ألحت علي قصة الصوفي صوفي الحاحا عجيبا.. فرحت احدثه بصوت منخفض ، طلي ، متجاوب مع القمر والامواج :

ـ عاش في شيراز ، طالب دين ...

أصغى الرجل السعيد الي بهدوء ، وانتباه . ولكن ما ان اتيت على فصل العاشقين ، على سطح المنزل ، وسميت الراقصة « ثوسمو » ، حتى رفع يده ، واخذ يتأملها . لقد أجهدت نفسي في خلق منظـــر ضوء القمر الشاعري .. وكان ذلك عزيزا على قلب الشاعر الـــذي يخفق بداخلي .. فعرفت البادرة ، وصرخت بدهشة عظيمة ، ورعب :

ـ أنت الصوفي صوفي الشيرازي !

قال الرجل السعيد :

ـ نعم .

انه لشيء مخيف ، بالنسبة للشاعر ، ان يتبين قصته حقيقية .. لقد كنت آنذاك صبيا ، مبتدئا في فني .. فاشرأب شعر رأسـي .. وأوشكت ان انهض ، وأولي الادبار .. الا ان شيئا في نبرات صـوت الرجل السعيد ، شدني الى المكان . قال :

ـ كان فيض من رفاهية الصوفي الذي حدثتني عنه قبل قليل ، في قلبي ، ذات مرة .. ولكنني كدت الان ان انساه .. سوى انـــه يسرني ان اعلم انه اصبح احدوثة ، فقد يكون هذا ما خلق لـه .. ولسوف اتركه ـ في المستقبل ـ هنالك باطمئنان .. هيا يا مسيرا جاما ، يا ايها القصصي ، وأكمل قصتك ، ودعني أسمع نهايتها .

ارتجفت أوصـــالي لطلبه .. غير ان طريقته سحرتني ، مـــرة اخرى ، وساعدتني على ان امسك بطرف خيط قصتي . شعـــرت ـ اول الامر ـ انه كان يمنحني بذلك شرفا.. وما لبثت ـ اذ تابعت ـ ان أدركت انني بدوري أضفي عليه شرفا .. ان نصر القصصي قـد ملأ قلبي .. فسردت قصتي بعاطفة بالغة .. وما ان فرغت منهـــا ـ هنالك على الشاطيء البحري الناعم ، حين لم يكن تحت أشعـــة البدر سوانا ـ حتى كان وجهي قد اغتسل بالدموع .

طفق الرجل السعيد يسري عني ، ويرجوني ألا أتأثر بقصة مـــا كثيرا . وهكذا ، عندما استعـــدت سيطرتي على نبرات صـوتي ، توسلت اليه ان يحدثني عن كل ما حدث له ، بعد ان ترك شيـــراز ، لان تجاربه في البحر العميـــق ، وحظه الذي جلب اليـه الثراء ، والشهرة بين الرجال ، سيؤلفان ـ بالتأكيد ـ قصة بديعة ، كالتـي حكيتها له ، بل واكثر مرحا .. وأوضحت له ان الامراء ، والنســـاء العظيمات ، والراقصات يحببن الحكايات الحزينة ، وكذلك يفعـل المتسولون القابعون في أزقة المدينة .. ولكنني أود ان اكون قصصيـا للعالم اجمع .. ورجال الاعمال وزوجاتهـم سيطلبون حكاية تنتهـي نهـــاية حسنة .

بقي الرجل السعيد صامتا الى حين .

أجابني :

ـ ان ما حدث لي ـ بعد ان هجرت شيراز ـ لا يؤلف قصة على الاطلاق .. انني مشهور بين الرجال ، لانني قادر على البقاء في قعر البحر ، اكثر منهم .. ان هذه المقدرة ـ اذا شئت ـ تركة بسيطة ، خلفها لي الصوفي الذي حدثتني عنه .. سوى ان ذلك لا يؤلفقصة.. لقد كانت الاسماك عطوفة علي .. انها لا تخون احدا .. وهكذا ، فان ذلك لا يؤلف قصة .

وبعد فترة اطول من الصمت ، استطرد قائلا :

ـ في مقابل حكايتك ، ولكي لا اثبط عزم شاعر شاب ، ومع ان ذلك لا يؤلف قصة ، فانـــي سأحدثك عما حدث لي ، بعـــد ان تركت شيراز .

ثم بدأ روايته ، فأصغيت اليه .

ـ سأهمل ايضاح كيفية خروجي من شيراز ، وقدومي هنا .. وسأسرد من تجاربي فقط ما يمكن ان يسعد رجال الاعمال وزوجاتهم.

ـ ذلك لان سمكة صغيرة ، عجوزا ، ذات نظـارة قرنية الاطـار تعهدت بي ، عندما غصت ـ اول مرة ـ الى الاعماق ، باحثا عـــن لؤلؤة نادرة ، معينة ، كنت ـ آنذاك ـ قد فكرت فيها طويـلا . كانت تلك السمكة ـ وهي بعد صغيرة ـ قد وقعت في شبكة اثنين مـــن الصيادين العجائز ، وأمضت ليلة بحالها هناك ، في الماء الآسن بجوف قاربهما .. واستمعت الى حديث هذين الرجلين اللذين لا بد وان كانا تقيين ، علامتين . ولكنها ـ في الصباح ـ بعد ان انتشلت الشبكة الى الشاطيء ، انزلقت من احد الثقوب ، وسبحت بعيدا .. ومنـذ ذلك الحين ، وهي تسخر من ريبة باقي الاسماك بالرجال . انهـــا توضح ان السمكة تستطيع حقا ان تسوسهم بسهولة ، اذا ما عرفت كيف تؤدب نفسها . أضف الى ذلك ، انها قد اخذت تهتم بطبيعـــة الانسان وعاداته .. وغالبا ما تحاضر جمعا من الاسمـــاك عنها .. ويحلو لها ، ايضا ، ان تبحثها معي .

ـ انني مدين لها بالشيء الكثير ، ذلك انها تحتل مكانة مرموقة ، في البحر .. ولما كنت تحت حمايتها ، فانني استقبل في كل مكان.. انني مدين لها ايضا ، بالكثير من الثروة ، والشهرة اللتين جعلتـــا مني ـ كما قيل لك ـ رجلا سعيدا .. انني مدين لها باكثر من ذلك ، لانها أفضت الي ـ في احاديثنا الطويلة معا ـ بالفلسفة التي أعادتني الى الطمأنينة .

شـــعر

من منشـورات دار الاداب

وجدتهـــا	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
عينـــاك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
ابيات ريفية	عبد الباسط الصوفي
رسائل مؤرقة	سليمان العيسى

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

وهذا ما تعظ به :

ـ انها تعلن « ان السمكة هي الوحيدة ، من بين جميع المخلوقات ، التي صنعت بأقصى عناية ودقة ، لتأتي على صورة الله .. ان كل الاشياء تعمل مجتمعة بفضل خيرها .. ومن هذا يمكننا القول بأنها قد دعيت لهذا الغرض .

ـ « ان الانسان لا يستطيع ان يتحرك الا باتجاه واحد .. وهو مقيد الى الارض .. ومع ذلك ، فان الارض لا تعطيه الا المسافة الضيقة ، الممتدة بين موطىء قدميه .. ان عليه ان يحمل ثقله ، ويتأوه من تحته .. ان عليه ـ وكذلك فهمت من حديث صيادي العجوزين ـ ان يتسلق تلال الارض بمشقة .. وقد يحدث له ان يسقط من فوقها ، فتتلقاه الارض ـ عندئذ ـ بقسوة .. وحتى الطيور ذات الاجنحة ، فانها ان لم تجهد اجنحتها ، فان الهواء الذي تقيم فيه ، يخونها ، ويقذف بها الى أسفل .

ـ « نحن معشر الاسماك ، نؤيد ، ونسند بكل اتجاه .. اننا نتمشى مع جوهرنا بثقة ووئام .. أننا نتحرك ضمن كل المقاييس .. ومهما كان الاتجاه الذي نأخذه ، فان المياه العاتية ـ احتراما منها لميزتنا ـ تغير شكلها تبعا لذلك .

ـ « نحن لا ايدي لنا .. ولذا ، فاننا لا نستطيع ان نشيد اي شيء قط .. ولا يغرينا الطموح الكاذب ، الى ان نغير اي شيء ، مهما كان ، في كون الله .. اننا لا نبذر ، ولا نكد .. ولذا فان تقديراتنا لا يمكن ان تأتي خاطئة ، ولا يخيب رجاؤنا .. ان اعظم الاسماك منزلة فينا ، قد وصلت ـ في بيئتها ـ الى الظلام الكامل .. ونواميس الكون نقرأها بسهولة ، لاننا نراها من اسفل .

ـ « اننا نحمل معنا ، في هيامنا هذا على وجوهنا ، بغير هدف ، عرضا للحوادث متقن التناسق ، لكي يثبت لنا مركزنا الممتاز ، ولكي يحفظ لنا شعورنا المتبادل ، وليؤكد لنا تعاطفنا .. انه معروف للانسان ايضا .. بل وانه ليحتل مكانا مهما في تاريخه .. ولكن ، نظرا لتصويره الطفولي للاشياء ، بشكل عام ، فان فهمه لها مشوه .. سوف اذكرها لك :

ـ « عندما خلق الله الارض والسماء ، تسببت له الارض بخيبة امل مريرة .. فالانسان ـ بقدرته على السقوط ـ سقط مباشرة تقريبا ، وسقط معه كل ما كان على الارض اليابسة . لقد ندم الله على انه خلق الانسان ، ووحوش الارض المفترسة ، وجوارح الهواء .

ـ « ولكن السمكة لم ، ولن تسقط ابدا .. فكيف ، او الى اين سنسقط نحن ؟.. وهكذا ، فان الله نظر الى اسماكه بعطف .. وواسته رؤيتها ، لطالما انها الوحيدة ، من بين جميع المخلوقات ، اللائي لم يخيبن امله .

ـ « وقضى الله ان يكافىء الاسماك حسب ميزاتها .. وهكذا تفجرت ينابيع الاغوار السحيقة .. وفتحت شبابيك السماء .. وتدفقت مياه الفيضان على الارض .. وطفت المياه ، وزيدت .. ففمرت جميع التلال الشاهقات التي كانت تحت السماء .. وطفت المياه بسرعة فائقة .. فمات كل اللحم الذي كان يدب على اليابسة ، من لحم الدواجن ، وقطعان الماشية ، والوحوش المفترسة ، وكل انسان .. لقد فني كل من عليها .

ـ « لن أطيل الحديث ـ وانا اقدم لك هذا التقرير ـ عن مسرات ذلك العصر ، وتلك الحالة ، لانني أتجاوب مع الانسان بالعاطفة ، فضلا عن الذوق .. انت نفسك ، ربما وطدت العزم ـ قبل ان تجد طريقك الينا ـ على اقتناء قطعان الابقار ، والخيل ، والجمال ، ولربما انك اقتنيت الحمام والطواويس .. انك ما تزال شابا ، وربما تعلقت ـ منذ عهد غير بعيد ـ بمخلوقة من طينتك ، وهي مع ذلك ، نوعا ما ، كالطائر ، وتسميها انت بالمرأة الشابة .. (مع ان من الخير لك ـ بالمناسبة ـ لو انها لم تكن كذلك ، لانني أتذكر كلمات صيادي ، ألا وهي ان المرأة الشابة تجعل عاشقها يذوق عذاب الاحتراق .. وربما اخذت ـ عوضا عن ذلك ـ تهتم باحدى بنات اخواتي ـ وهن مخلوقات شابات ، مالحات بشكل غير مألوف ـ واللائي لن يذقن العاشق أيا من عذاب الاحتراق) .. ولن اذكر الا باقتضاب انه كان لنا مائة وخمسون يوما من الخير ، وان تلك الكمية الوافرة ، المباركة ظهرت بنفخة بوق كاملة .

ـ « وسوف اضيف ، باسلوب الاسماك البدائي ، العاقل ـ وارضاء لنفسي هذه المرة ـ مارا بذلك على الحقيقة مرور الكرام ، ان الانسان ، رغم انه سقط ، وعفن ، قد نجح بالخداع ، مرة اخرى ، في ان يتربع على القمة .

ـ « وعلى كل حال ، يبقى الامر موضع شك شديد ، في ان يكون الانسان قد حصل ، من خلال هذا النصر الظاهري ، على الرفاهية الحقيقية .. فكيف ينال الطمأنينة الحقيقية مخلوق قلق ابدا على الاتجاهات التي يتحرك فيها .. مخلوق يعلق على ارتقائه او سقوطه أهمية بالغة .. كيف يستطيع مخلوق ان ينال الدعة ، وهو يأبى ان يقلع عن فكرة الامل ، والخطر ؟

ـ « نحن معشر الاسماك نستريح بهدوء ، مدعومين في كل الاتجاهات ، ضمن طبيعة تسوي نفسها دائما بدقة ، ودونما كلل .. طبيعة يمكن ان يقال انها تضطلع بوجودنا الشخصي ، بقدر ما تحسب اوزاننا ، واجسادنا ـ بغض النظر عن اشكالنا الشخصية ، وما اذا كنا اسماكا مسطحة ، او مستديرة ـ بالنسبة الى ذلك الحيز الذي نحتله في بيئتنا .

ـ « لقد اثبتت لنا تجاربنا ـ وستثبت لك تجربتك الخاصة ، في يوم ما ـ ان المرء يستطيع ان يطفو جيدا ، بدون امل .. بلى ، فان المرء سيطفو افضل بدونه .. وعليه ، ايضا ، فان شريعتنا تنص على ان يطرح كل الامل ، بالنسبة لنا ، جانبا .

ـ « نحن لا نركب الاخطار ، ذلك ان تفييرنا المكان ـ في الواقع ـ لا يخلق ، او يخلف وراءه ما يسميه الانسان طريقا .. وهي الظاهرة ـ وليست في الواقع ظاهرة بل وهما ـ التي يضيع الانسان عليها تصميما عاطفيا ، لا يمكن تفسيره .

ـ « والانسان ، في النهاية ، منزعج بفكرة الزمن .. انه متجول باستمرار بين الماضي ، والمستقبل . ان سكان العالم المائي قد جمعوا الماضي والمستقبل ، في القول المأثور : بعدنا فليكن الطوفان » .

ترجمة حسن بكر

صدر حديثا

الوجودية وحكمة الشعوب

تأليف سيمون دو بوفوار

ترجمة جورج طرابيشي

دراسات عميقة عن الوجودية وعلاقاتها

بالمجتمع والشعب وأثرها في الحياة عموما

دار الاداب الثمن ١٧٥ قرشا لبنانيا